المثال في خطاب الزهراء عليها السلام

الأستاذ المساعد الدكتور
عباس علي الفحام
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية

المثال في خطاب الزهراء عليها السلام

الأستاذ المساعد الدكتور
عباس علي الفحام
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية

المقدمة:

لقد كان من نعم الله علينا إتاحة الفرصة لنا في الكتابة عن سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام، وتوظيف المنهج الأكاديمي في خدمة أعلام أهل البيت عليهم السلام وإظهار تراثهم من أجل الانتفاع بها على مختلف المستويات المعرفية. وقد اخترت عنوان بحثي المتواضع (المثال في خطاب الزهراء عليها السلام) محاولة للبحث عن الجدة في جانب مفصلي من جوانب هذه الشخصية العظيمة، ولأهمية صورة المثال في تعزيز الحجة وإفراغ الخصم من محتواه. وكانت خطة البحث في تمهيد وثلاثة محاور، تناول التمهيد موضوعة (المناسبة والمثال) للتعريف بهما للولوج إلى صور المثال الثلاثة وهي:

الأول: القرآن الكريم: وتفرع عنه طبيعة تناول هذه الصورة الإلهية المثالية من الجهة الفنية والموضوعية وتحددت بشقين هما: الصيغ القرآنية، والعمق والفهم في الأخذ عن القرآن الكريم.

الثاني: النبي الوالد صلى الله عليه وآله: وقد تحدد بموضعين من الذكر، لكل منهما سياقه في التناول.

الثالث: الإمام علي عليه السلام: وذكرته الزهراء بشكل مفصل وقف عليها البحث من الجهات الآتية: الشجاعة، والعبادة، والفضائل المخصوصة، والصورة المقابلة.

واختتم البحث بمجموعة من الخلاصات، كثفت محاوره في شكل نقاط محددة. هذا وقد كان معين المصادر في البحث متنوعا ضم كتب التاريخ والأدب وبعض تفاسير القرآن الكريم فضلا عن الدراسات الحديثة عن شخصية البتول عليها السلام.

التمهيد:ـ

المناسبة والمثال:ـ

شكلت حادثة وفاة الرسول الأعظم امتحانا مفصليا للأمة، اختبرت فيه النوايا، وامتحنت به النفوس المريضة، فظهرت صور النفاق جلية وبشعة، بعضها تمثل في الارتداد عن الإيمان بالتوحيد كمسيلمة الكذاب وقومه في بعض أطراف الجزيرة، وبعضها تمثل في الانقلاب على تعاليم النبي صلى الله عليه وآله والاستيلاء على السلطة في داخل المدينة، فكان جراء ذلك التطاول على حرمة البيت النبوي وحرمان ابنته الوحيدة من حقوقها في إرث أبيها في فدك التي نحلها إياها رسول الله صلى الله عليه وآله[1]، وفدك أرض زراعية غنية قريبة من خيبر استسلمت للنبي صلى الله عليه وآله من دون قتال بعد أن سمع أهلها استسلام أهل خيبر[2]، لذا كانت له صلى الله عليه وآله خاصة، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ونحلها إلى ابنته فاطمة عليها السلام، غير أنها حرمت منها بعد ذلك بحجة أن الأنبياء لا يورثون[3].

ومن هنا كانت مناسبة هذا الخطاب البين، فكانت فدك الباعث عليه، والقشة التي قصمت ظهر المجترئين على الإسلام، فصوت فاطمة الدافئ مثل أشعة الشمس في لحظات الوداعة حاد كالسيف وهادر كالسيل في ساعات الشدة، وحزن فقد أبيها صلى الله عليه وآله - على الرغم من ثقله - لم يقدر له أن يطفئ جذوة الحقيقة التي أشعلتها كلمات فاطمة عليها السلام، لأن الحدث عظيم الخطر على الإسلام، فجاءت خطبتها إعلانا مدويا يشبه إعلان أبيها في مكة غير أنه الآن في المدينة.

ذكرت مصادر التاريخ [٤] أنه لما بلغها إجماع القوم من كبار صحابة النبي صلى الله عليه وآله على منعها فدكا وانصراف عاملها منها أقبلت تطأ أذيالها في مشية مهيبة تشبه مشية أبيها[٥]، وقد لاثت [٦] خمارها على رأسها، ومن حولها حف المهاجرون والأنصار، فنيطت بينها ملاءة، وخطبت في ذلك الجمع من المسلمين خطابها المدوي الواضح البيان والقوي الحجة.

تلك كانت مناسبة الخطبة، أما ارتباط المناسبة بالمثال فبين واضح، فالمثال المقصود هو الصورة المتكاملة والمتطابقة من جهة مضمونها وشكلها، وهو بعد مؤثر غاية التأثير لأنه واقع عملي وعياني محل حذو واقتداء دائما[٧]، ولابد لكل شخصية من مثال ماثل أمامه، يقتفي اثر فضائله، ويسعى للتكامل معه، وهكذا أغلب الشخصيات العظيمة.

وحين تكون صورة المثال مما يقدس ويعرف، لا ريب في أنه أبلغ في التأثير، وأعظم في الوقع على النفوس، ومن هنا جاء تعداد صور المثال لدى الزهراء في خطابها، مختصا من جهة بهذه الأسرة، القرآن النازل على أبيها صلى الله عليه وآله، والنبي الوالد، وزوجها أخ النبي، ومنبها على فداحة الخطر المحدق بمصالح الإسلام من جهة ثانية.

لذلك يبدو إن صور المثال التي عرضت هي مقدمات للولوج إلى الغرض من الخطبة، وهو التنبه إلى الفعل الخطير المتمثل في الانقلاب على دستور محمد وآل محمد صلوات الله عليهم والتنكر لخليفته من بعده وهو علي عليه السلام، إنه ليس مجرد المطالبة بإرث مادي هو فدك، بل كان ذلك سببا إلى إعلان هذه الصيحة بوجه القوم، ولعل التحليل لما جاء في خطابها عليها السلام - كما سيتضح - من الحذر من فداحة الانحراف دليل على ما نزعم من أن فدكا شرارة خطيرة ستحرق البيت الإسلامي إذا استمر فتيلها، وفعلاً، كان ما حذرت منه الزهراء وقع للأسف.

المثال الأول: القرآن الكريم

رسمت الزهراء للقرآن الكريم صورة حية ماثلة للأذهان، متخذة منه المثال الإلهي الذي لا يمكن رده في تعزيز دعواها بأحقيتها في إرث أبيها صلى الله عليه وآله، فقد خاطبت مجلس الصحابة بقولها: ((أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغائه إلى الأمم، زعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، منجلية ظواهره، مغتبطة به أشياعه، قائدا إلى الرضوان أتباعه، مؤد إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة)) [٨].

وقد استمدت الزهراء عليها السلام صفات هذا المثال الخالد من الكتاب العزيز ذاته، في دلالة على ذوبانها في معانيه العظيمة، وتمكنها من استجلاب ألفاظه الشريفة وتوظيفها في منجز كلامي آخر. ويمكن تبيانه على النحو الفني الآتي:

أولاً: الصيغ القرآنية.

- (كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع).

جمعت هذه العبارات صيغ توازن واحدة في نهاياتها، فضلا عن الصيغ السجعية التي توزع فقراتها، وهو سجع سيتكرر كثيرا في الخطبة، متنوع الأواخر، ما يشير إلى انسياقه وراء المعنى، وجريه عفو الخاطر من دون قهر للفظ. والصفات كلها التي أسبغت على القرآن الكريم مأخوذة من آيات الكتاب العزيز في سور متفرقة وصفت بها، فـ (الكتاب الناطق) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [٩].

وقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١٠].

و(القرآن الصادق) مستمد من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۞ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[١١]، ومن قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾[١٢].

وقولها عليها السلام (النور الساطع) وصف آخر مأخوذ من التعبير القرآني الذي وصف الكتاب العزيز بالنور بجامع الهداية إلى النجاة والفوز برضوان الله تعالى، نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[١٣]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[١٤]، وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١٥].

و(الضياء اللامع) لفظ منقول من قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١٦].

ثانياً: العمق والفهم.

وهو إعادة شرح للآيات القرآنية الشريفة،وإعادة إنتاج للصيغ القرآنية العظيمة بما يوافق الموقف الذي فيه الزهراء عليها السلام في حجاجها، وفيها نجد عمقا عجيبا في القدرة على الغوص في المعاني القرآنية وتمثيلها بشكل جامع وشامل، نحو قولها عليها السلام في صفة القرآن الكريم: ((بينة بصائره، منكشفة سرائره، منجلية ظواهره، مغتبطة به أشياعه، قائدا إلى الرضوان أتباعه، مؤد إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة)) [١٧]. إن هذه العبارات تكشف عن حقائق عملية جامعة

للكتاب العظيم، روعي فيها التبصر الدقيق في العبارات القرآنية، لأن عبارة (بينة بصائره) تحيل على مجموعة كبيرة من الآيات الشريفة في هذا المعنى نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١٩]، وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٢٠].

وعبارة (منجلية ظواهره) تعبير واسع لجميع الحقائق التي تحدث عنها القرآن الكريم من المعجزات المختلفة التي تحققت، والتي سيسعى الإنسان لاكتشافها مستقبلا.

وقولها عليها السلام (مغتبطة به أشياعه) تعبير عملي في مختلف المستويات النفسية والغيبية، لأن أشياع القرآن ومريديه مطمئنين في طبائعهم النفسية لا يخافون غير الله تعالى، وهم بعد في الآخرة يغبطون على هذه المزية، قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٢١]، وقولها عليها السلام (مؤد إلى النجاة استماعه) تمثيل لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢٢].

والمحارم المحذرة مقصود بها قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[٢٣]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[٢٤].

ولا يخفى روعة الأداء الفني للعبارات التي جاءت بنسق واحد من الموازنة والسجع المنساب، من استعمال المشتقات المختلفة كاسم الفاعل والمفعول، التي أسبغت على المعنى جمالا موسيقيا لافتا للانتباه وشادا السامع إلى الإيقاظ، فضلا عما تحمل من شعور دافق انتظم جمالا وروعة.

المثال الثاني: النبي الوالد صلى الله عليه وآله.

ذكرت البتول عليها السلام أباها النبي العظيم صلى الله عليه وآله مرتين في خطابها الحجاجي أمام المسلمين وكبار الصحابة. ورسمته مثالا حياً وفصلت فيه الكلام تفصيلا بالغ الروعة في الأداء والإحاطة بالمعنى.

الذكر الأول:

قالت في الموضع الأول من ذكر أبيها صلوات الله عليهما: ((وأشهد أن أبي محمدا عبده ورسوله اختاره قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة علما من الله تعالى بما يلي الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بموقع الأمور ابتعثه الله إتماما لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذا لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقا في أديانها، عكفا على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها فأنار الله بأبي محمد صلى الله عليه وآله ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم. ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد صلى الله عليه وآله من تعب هذه الدار في راحة، قد حف بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيه، وأمينه، وخيرته من الخلق وصفيه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته))[٢٥].

ويمكن الوقوف على تفاصيل هذا المثال الإلهي ببيان الحقائق الآتية:

- إن فاطمة عليها السلام تحدثت عن فكر استراتيجي بعيد شمل أصل ابتعاث النبي صلى الله عليه وآله، من أجل هداية الناس إلى عبادة الواحد الأحد، فذكرت صفات أبيها من القرآن الكريم (المختار والمجتبى والمصطفى). وهو فكر عظيم يتعالى على ضيق الأفق المتمثل بالإرث المادي إلى التبصر في

فداحة التمادي على بيت نبي مثل محمد صلى الله عليه وآله.

- إن فضل النبي محمد صلى الله عليه وآله لا يمكن جحده في لم شتات الناس على وحدانية الله تعالى عامة، وانتشال العرب خاصة من حفرة النار التي كانوا على شفيرها.
- إن في التخصيص الذي تكرر ثلاث مرات في لفظ (أبي): الأول في الشهادة، والثاني في قولها: (فأنار الله بأبي محمد صلى الله عليه وآله ظلمها) والثالث: في الصلاة عليه، شعور بالغبن والجحد والظلم الذي وقع على البيت العلوي بالاجتراء عليه وحرمانه من حقوقه المشروعة، وهو بعد فيه تعريض للمجترئين لا يخفى على لبيب.
- في صورة رحيل النبي صلى الله عليه وآله تفصيل روحي ابتعد فيه عن ذكر الضيق المادي إلى أفق رحب علق عليه السيد محمد باقر الصدر قدس سره بقوله: ((تركت النعيم المادي كله، لأنها رأت في معاني أبيها العظيم ما يرتفع عن ذلك كله، وما قيمة اللذة المادية في حساب محمد الروحي الذي لم يرتفع أحد بالروح الإنسانية كما ارتفع بها)) [٢٦]. وهكذا حين يكون رحيل العظماء غير عابئين بالدنيا منشدين إلى ذات الله تعالى، يكون الموت عندها راحة حقيقية لهم من تعب الحياة، ولذا يرحبون مستبشرين بالموت إذا حل بهم.

الذكر الثاني:

أما الموضع الثاني من خطاب الزهراء ففي قولها وقد تعمدت ذكره ثانية فقالت: ((أيها الناس اعلموا: إني فاطمة وأبي محمد صلى الله عليه وآله أقول عودا وبدوا، ولا أقول ما أقول غلطا، ولا أفعل ما أفعل شططا، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تعزوه وتعرفوه: تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم

المعزى إليه صلى الله عليه وآله، فبلغ الرسالة، صادعا بالنذارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضاربا ثبجهم، آخذا بأكظامهم، داعيا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجف الأصنام وينكث الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، حتى تفرى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين وطاح وشيظ النفاق[٢٧] وانحلت عقد الكفر والشقاق، وفهتم بكلمة الإخلاص، في نفر من البيض الخماص وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام تشربون الطرق وتقتاتون القد أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله)) [٢٨].

ويبدو من سياق الخطبة إن الموقف البياني قد دعا إلى ذكر النبي صلى الله عليه وآله ثانية من أجل التخصيص في الكلام، وذكر فضله على العرب والقوم الذين تحاججهم الزهراء عليها السلام، فالصورة الأولى صورة استراتيجية لبعث النبي صلى الله عليه وآله، ولذا ذكرت فيها ألفاظ عامة وعالمية مثل (الأمم، الفرق، الخلائق)، وهو بعد خطاب عام غير موجه نحو أحد توجيها مباشرا، كما هو الحال في رسم هذه الصورة الثانية، فكان سياق الحال من الذكر ثانية هو الوصول إلى الخطاب المباشر وتنبيههم بفداحة ما يصنعون مع الزهراء عليها السلام. لذلك حمل الكلام الكثير من ضمائر التكلم وضمائر الخطاب نحو قولها عليها السلام: (إني فاطمة وأبي محمد صلى الله عليه وآله أقول عودا وبدوا، ولا أقول ما أقول غلطا، ولا أفعل ما أفعل شططا، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٢٩] فإن تعزوه وتعرفوه: تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم..)) [٣٠]. كما إن في اقتباس الآية الشريفة دلالة واضحة على هذا التخصيص في الكلام.

ويبدو أن فاطمة عليها السلام قد حرصت على رسم صفات لأبيها في غاية اللياقة لمقامه النبوي الشامخ، وكأنها بذلك تعلم الأمة كيف تخاطب عظيمها الروحاني فهو مبلغ ومنذر، معرض عن المشركين غير عابئ بما قدموا من إغراءات، شديد على الكافرين، وهو بعد الداعي إلى الله الحكيم، وهذه المعاني الجليلة كلها أديت بأسلوب قوي العبارة متينها معتمدة الأساليب الإيقاعية العفوية غير المخلة بالمعنى كالموازنة بين الفقرات القصيرة، والسجع الأخاذ، والطباق بين الألفاظ أحيانا. وهذه العناصر الموسيقية في الكلام أقدر على إخراج هذه القوة من الحماسة والانفعالات الإنسانية، لما توفره من رنين موسيقي شديد له أثره في النفوس، تلك الحماسة التي تبدو قوة صورتها في وصفها لشدة انتشار الإسلام وانتصاره على الشرك في قولها: (حتى تفرى الليل عن صبحه) بهذه الاستعارة الموحية التي كنت عن الكفر بالليل وصورته شيئا ماديا ما إن تشظت أجزاؤه حتى انبلج عنه فجر الإسلام.

وفي هذه الصورة تفاصيل دقيقة لصورة العرب قبل الرسالة المحمدية، غايتها التذكير والتنبيه بفضل هذه الشخصية الإلهية، وهي صور متلاحقة متتالية في رسم حالة الوهن والهزال التي وصل إليها العرب قبل بعث النبي صلى الله عليه وآله، وبأداء فني رفيع اتخذ من توازن الفقرات ورعاية نهاياتها السجعية ودقة في انتقاء المفردات قالبا بلاغيا امتزجت فيه الدلالة بالايقاع امتزاجا رائعا. وقد كان الاستحضار القرآني دقيقا في مناسبة المقام فهم (مذقة الشارب) والمذقة الشربة من اللبن الممزوج بالماء وهم (نهزة الطامع) والنهزة بضم النون هي الفرصة الممنوحة للاغتنام وهم (قبسة العجلان) الذي يأخذ من جذوتهم ليشعل لنفسه على عجل، وهذه الكنايات التي ترمي إلى تبيان معان أبعد من صورتها الحقيقية كمعاني التشرذم والتناحر والاقتتال الداخلي جعلتهم محل أطماع الآخرين وفرصا سهلة الاغتنام، فهم ضعفاء أمام ما

جاورهم من جيوش الأمم، فلم تحسب لهم يوما حسابا يذكر بل كانوا موطيء الأقدام، لا منعة لهم ولا عزة، (يشربون الطرق ويقتاتون الورق) والطرق هو الماء الذي بالت فيه الدواب فاصفر لونه، أما الورق فهو الأدم الرقاق من الجلد غير المدبوغ، لذلك أردفت بقولها (أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم) لأن من كان ذاك طعامه وشرابه لا شك في أنه يخشى سطوة الجار الشديد الظالم.

ولا ريب في أن وقع هذه المعاني ثقيل على السامعين، ولكن مطابقتها لمقتضى حالهم برر ذلك، لأن الزهراء خاطبت قوما أصبحوا أسيادا بعد ذلك الذل بفضل أبيها صلى الله عليه وآله.

المثال الثالث: الإمام علي عليه السلام.

رسمت الزهراء عليها السلام بكلماتها صورة المثال الثالث أمام المسلمين وهي تعرض صورة زوجها علي عليه السلام فقالت عابرة بالحديث عن أبيها صلى الله عليه وآله إلى زوجها علي عليه السلام: ((.. وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ جناحها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه، مكدودا في ذات الله، مجتهدا في أمر الله، قريبا من رسول الله، سيدا في أولياء الله، مشمرا ناصحا، مجدا، كادحا، لا تأخذه في الله لومة لائم، وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال..)) [٣١].

إن هذا المثال الإلهي رسمت أبعاد صورته كلمات الزهراء بدقة، وهي صورة رديفة لذكر النبي صلى الله عليه وآله ولصيقة به، واشتملت تفاصيلها على المحاور الآتية:

١- الشجاعة:

هي صورة التفاني في الله تعالى ونذر النفس من أجل إعلاء كلمة التوحيد، فقد عرف عن علي عليه السلام شدته في إحقاق الحق وصلابته في حروبه مع النبي صلى الله عليه وآله، وهي بطولة حرصت الزهراء في رسمها على أن تقدمها ممزوجة بهذا العشق الإلهي المحمدي في تعبيرها (قذف أخاه في لهواتها)، ففي هذا السياق تستشف معاني الشدة والقوة التي تحمل السامع على أن يتأمل علياً عليه السلام في أوقات الحرب شديدا غير هياب ولا متردد كلما (فغرت الحرب فاها) أي فتحت فمها وهو مثل للحرب إذا اشتدت ((ومثلت من يقتل فيها بابتلاعها إياهم كأنها فغرت فاها، أي فتحته لتأتيهم من يقتل فيها))[٣٢].

وفي ذكر الأخ دون غيره جملة من الاعتبارات منها التذكير بمؤاخاته له دون غيره من سائر المسلمين، ومنها في الإيحاء بثقة النبي بعلي عليه السلام وتمكنه من إطفاء نار الفتن، فهذا البطل المقدام لا يرجع حتى يدوس بكامل قدمه (بأخمصه) على رأس المشركين زيادة في التمكن وإشارة إلى تحقير المعاندين (صماخها).

وقد حملت صور الشجاعة وقفات عدة، أشارت إليها الزهراء بأسلوب موجز فيه تفصيل كثير لما حمل من محطات مصيرية للمسلمين، وكان لسيف علي عليه السلام كلمة الفصل فيها: (فبهم الرجال وذؤبان العرب) إشارة إلى صناديد قريش وشجعان الجزيرة العربية الذين قضى عليهم الإمام علي في أحد وبدر. أما الآية التي تمثلت بها الزهراء عليها السلام وهي قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[٣٣]، فهي إشارة إلى معركة الأحزاب التي قضى فيها الإمام علي على عمرو بن ود العامري، بعد أن عبر الخندق متحديا المسلمين الذين زلزلوا زلزالا عظيما. والتعبير (مردة الكتاب) إشارة إلى فتح خيبر على يد الإمام عليه السلام وقتل مرحب اليهودي وأخيه الحارث.

وفي تعبير الزهراء عليها السلام (فلا ينكفئ حتى يطأ جناحها بأخمصه ويخمد لهبها

بسيفه) تمجيد بانتصارات علي عليه السلام وتعريض بغيره في الفشل بفتح خيبر.

٢- العبادة:

وفيها انتقالة من الشجاعة في تثبيت كلمة التوحيد إلى الإيحاء بطبيعة عبادة أمير المؤمنين عليه السلام القائمة على التطبيق لما آمن، بإيجاز عجيب رسمته الزهراء في تعبيرها (مكدوداً في ذات الله)، أردف بألفاظ في غاية الدقة بأداء المعنى المراد من القرب من الله ورسوله (قريباً، سيداً في أولياء الله، مشمرا ناصحا، مجدا، كادحا، لا تأخذه في الله لومة لائم) وبما يخجل معانينا من بسط شرحها.

٣- فضائل مخصوصة

سجلت الزهراء عليها السلام لعلي عليه السلام بعضا من الفضائل التي اختص بها الإمام وحده بما يناسب المقام، فقولها (قريبا من رسول الله) إشارة إلى القرابة القريبة بين الإمام وابن عمه الرسول صلوات الله عليهما، فضلا عما اختص به الإمام من تربية النبي له صغيرا ورعايته له في بيت خديجة عليها السلام منذ السن الثالثة من عمره بعد الجدب الذي ضرب قريشاً والضر الذي مس أبا طالب الأمر الذي دعا النبي صلى الله عليه وآله للاقتراح على عمه العباس للتخفيف عن كاهل أبي طالب في أمر تدبير العيال فكان ((ممّا أنعم الله على عليّ بن أبي طالب عليه السلام انه كان في حِجْرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام))[٣٤]بعد أنْ اخذ العباس جعفراً[٣٥]. وهذه القرابة موضع إكبار واعتزاز لدى أمير المؤمنين عليه السلام وذكرها محتجا وهو في العقد السادس من عمره الشريف فقال: ((وَقَدْ عَلِمْتُم مَوضِعي مِنْ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وانا ولدٌ، يضَمُّني إلى صدره ويكْنَفُني إلى فراشه، ويُمسُّني جسده، ويُشمُّني عَرْفَه، وكان يمضغ الشيء ثم يُلْقِمُنيه، وما وجد لي كذْبَةً في قَوْلٍ، ولا خَطْلَةً في فعْلٍ، ولقد قَرَنَ الله به صلى الله عليه وآله من لَدُنْ أَنْ كان فَطيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ ملائِكَتِه يَسْلُكُ بِهِ طَريقَ المكارمِ ومَحاسنَ أخلاقِ العالَمِ لَيْلَهُ ونَهارَهُ. ولقد

كنْتُ أتَّبِعُهُ اتِّباعَ الفَصيلِ أثَرَ أُمِّه، يَرْفَعُ لي في كُلِّ يَوْمٍ منْ أخْلاقِه عَلَماً ويَأمُرُني بالاقتداء به، ولقد كانَ يُجاوِرُ في كُلِّ سَنَةٍ بِحراءَ فأراهُ ولا يراهُ غَيري ولَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ واحدٍ يومئذٍ في الإسلام غيرَ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله وخديجةَ وأنا ثالثُهُما، أرى نورَ الوَحْي وأَشَمُّ ريحَ النبوةِ)) (٣٦).

وهذه العلاقة المميزة لها أثر واضح في شخصية علي عليه السلام، فهو لم يفارق النبي صلى الله عليه وآله طيلة مرافقته زهاء ثلاثين عاما، حتى وفاة الرسول صلوات الله عليه التي صورها علي عليه السلام بقوله: ((ولَقَدْ قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وآله وإنَّ رأسَه لَعَلى صدري ولَقَدْ سَالَتْ نفسُه في كَفِّي فَأمْرَرْتُها على وَجْهِي، ولَقَدْ وُلِّيْتُ غُسْلَه صلى الله عليه وآله والملائكةُ أعْواني)) (٣٧).

ومما أشارت إليه الزهراء من فضل لعلي عليه السلام كونه (سيدا في أولياء الله) فقد أثر عن النبي صلى الله عليه وآله قوله لأم سلمة: ((اسمعي واشهدي، هذا علي أمير المؤمنين وسيد الوصيين)) (٣٨).

ومثله قوله صلى الله عليه وآله: ((أنا سيد النبيين وعلي سيد الوصيين)) (٣٩)، وقوله: ((علي ولي الله)) (٤٠)، بل أكدت التفاسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٤١) أن ذاك هو علي عليه السلام (٤٢).

٤- الصورة المقابلة:

وهو التفات يفجأ السامع بصورة المقارنة بين ما رسمت للإمام علي عليه السلام من صورة لتفانيه في الحرب ولهواتها وبين من تخاطب، بانتقال سريع مكثف العبارة في قولها (وأنتم في رفاهية وادعون آمنون)، ولا غرو، فثمة فرق بين من يرمى في لهوات الموت وبين من يكون مرابطا في الخطوط الخلفية للقتال، وهذا المعنى سيسمعه الناس من علي عليه السلام ذاته بعد ثلاثة عقود، في قوله متحدثا عن جهاده بين يدي ابن عمه: ((ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص

فيها الأبطال وتتأخر فيها الأقدام)) (٤٣).

إن صور المثال التي عرضتها فاطمة البتول عليها السلام في لوحتها تذكير بعظمة هذا البيت المحمدي الطاهر، إذ توضح مدى التفاوت الهائل بينها وبين صورة ((المناسبة)) لخطابها هذا، ولاسيما حين قارنت بين صورة علي عليه السلام وبين من تنكر للنبي وآله عليهم السلام.

فالصورة المقابلة لصورة المثال المتجسد في شخص علي عليه السلام في غاية من التناقض والقتامة والانتهازية، إذ في جانب من هذه اللوحة ثمة عظيم جواد بنفسه من أجل هدف سام مقذوف بين أكف الموت، وفي جانب آخر أناس طفيليون يعتاشون على تضحيات غيرهم، ثم بعد ذلك يستغلون روح الإيثار عند العظماء في تغليب مصالح المسلمين على أنفسهم، فيحصدون تعب غيرهم بنفاق كريه، وعلى حد قول الزهراء عليها السلام: ((تشربون حسوا في ارتغاء، وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء)) (٤٤).

الخلاصة:ـ

توضح من البحث جملة من الحقائق يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

أولا: يقصد بالمثال الأنموذج الحي المتكامل في القول والفعل، والمؤثر في النفس والمجتمع.

ثانيا: ثمة رابط جلي مقصود بين مناسبة خطاب الزهراء في مسجد أبيها بعد وفاته صلى الله عليه وآله وبين صور المثال التي رسمتها الزهراء عليها السلام لإحراج المجترئين على هضم حقوقها.

ثالثاً: تحدد في خطاب الزهراء في مسجد النبي صلى الله عليه وآله بعد حرمانها من إرث أبيها ثلاثة صور من صور المثال هي القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام.

رابعاً: دل خطاب الزهراء على ذوبان عظيم في لغة القرآن الكريم وتمثيل فطري واع لآياته الشريفة.

خامساً: حملت العبارات المكثفة في صورة علي عليه السلام مزيدا من القصص والفضائل التي اختص بها زوجها عليه السلام.

سادساً: اتسم خطاب الزهراء بتطابق فريد بين الموضوع والأداء على أساس فني، اتخذ من التعبير بالصورة والعبارة النغمية سبيلا لنقل الشعور وتوضيح المعنى والتأثير في السامعين.

هوامش البحث

(١) ظ. الاختصاص، الشيخ المفيد: ١٨٣، كشف الغمة، الإربلي: ١٠٥/٢، ينابيع المودة، القندوزي: ١٣٨/١

(٢) ظ. معجم البلدان، الحموي: ٢٣٨/٤

(٣) ظ. مسند ابن حنبل، أحمد بن حنبل: ٤/١، تاريخ الإسلام، الذهبي: ٣٤٣/١٩، كشف الغمة، الإربلي: ١٠٢/٢

(٤) مثل: بلاغات النساء، ابن طيفور: ١٢، الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١٣١ – ١٣٩، كشف الغمة، الإربلي: ٢/ ١١١، بحار الأنوار، المجلسي: ٢٩ / ٢٢٤

(٥) ظ. شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ٣ / ٣٤ - ٤١

(٦) اللوث: هو الطي والجمع. ظ: لسان العرب، ابن منظور: (لوث).

(٧) ظ. تعريف المثل والمثال في لسان العرب ن ابن منظور: مادة (مثل).

(٨) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١٣١ - ١٣٩

(٩) المؤمنون: ٦٢

(١٠) الجاثية: ٢٩

(١١) الزمر: ٣٢-٣٣

(١٢) الأحقاف: ١٢

(١٣) المائدة: ١٥

(١٤) النساء: ١٧٤

(١٥) الأعراف: ١٥٧
(١٦) الأنبياء: ٤٨
(١٧) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١٣١ - ١٣٩
(١٨) الأنعام: ١٠٤
(١٩) الأعراف: ٢٠٣
(٢٠) الجاثية: ٢٠
(٢١) الحديد: ١٢
(٢٢) الأعراف: ٢٠٤
(٢٣) آل عمران: ٣٠
(٢٤) البقرة: ١٨٧
(٢٥) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١٣١ - ١٣٩
(٢٦) فدك في التاريخ، محمد باقر الصدر: ١٢٣
(٢٧) الشقاشق: الشقشقة: لهاة البعير. الوشيظ: قطعة عظم تكون زيادة في العظم الصميم، وقيل هو الدخيل من القوم.الخماص: خماص البطون، خفاف الظهر: أي أعفة عن أموال الناس. ينظر لسان العرب، ابن منظور:شقق، وشظ، خمص.
(٢٨) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١٣١ - ١٣٩
(٢٩) التوبة: ١٢٨
(٣٠) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١٣١ - ١٣٩
(٣١) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١٣١ - ١٣٩
(٣٢) شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ٣ / ٤١
(٣٣) المائدة: ٦٤
(٣٤) تاريخ الطبري، الطبري: ٢ / ٣١٣.
(٣٥) السيرة النبوية،ابن هشام: ١ / ٢٢٨.
(٣٦) نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده: ٢/ ١٥٧، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٣ / ٣٦٩.
(٣٧) نهج البلاغة، شرح محمد عبده: ١٧٢/٢، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٠ / ١٧٩.
(٣٨) الإرشاد، الشيخ المفيد: ٤٦/١
(٣٩) ظ.مناقب آل أبي طالب، ابن شهر اشوب: ٢١٧/٢، روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ٨٤، دلائل الإمامة، الطبري: ٥٦

(٤٠) كشف اليقين، العلامة الحلي: ١٧

(٤١) المائدة: ٥٥

(٤٢) ظ. مجمع البيان، الطبرسي: ٣٦٣/٣، جامع البيان، الطبري: ٦/ ٣٨٩،الكشاف، الزمخشري: ٦٢٤/١، تفسير الرازي: ٢٠/١٢،

(٤٣) نهج البلاغة، شرح محمد عبده: ١٧٢/٢

(٤٤) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١٣١ - ١٣٩

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- الاحتجاج، الشيخ الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)تعليق وملاحظات: السيد محمد باقر الخرسان، - ١٩٦٦م، مطبعة دار النعمان - النجف الأشرف.

- الاختصاص، الشيخ المفيد(ت٤١٣هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري والسيد محمود الزرندي، الطبعة الثانية- ١٩٩٣م، لبنان.

- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ أبو عبد الله، محمد بن محمد بن النعمان (٣٣٦-٤٣١هـ). تحقيق: مؤسسة أهل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، دار المفيد، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي(ت١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣.

- تاريخ الإسلام، الذهبي(ت ٧٤٨)، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمرى، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، لبنان، بيروت - دار الكتاب العربي.

- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف – مصر، ١٩٨٧م.

- التفسير الكبير (أو مفاتيح الغيب)، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، المطبعة البهية – مصر، بدون تاريخ.

- جامع البيان عن تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، الطبعة الثانية، الحلبي – ١٩٥٤م.

- دلائل الامامة، محمد بن جرير الطبري، مطبعة مؤسسة البعثة – قم، الطبعة الأولى- ١٤١٣هـ، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.

- روضة الواعظين، الفتال النيسابوري الشهيد (ت٥٠٨هـ)، تقديم: السيد محمد مهدي الخرسان.د.ت.

- السيرة النبوية. ـ ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري (٢١٣هـ). قدم لها وعلق عليها وضبطها: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٥م.

- شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي (ت ٣٦٣ هـ)، تحقيق:السيد محمد الحسيني الجلالي، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، بقم المشرفة.

- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المدائني (ت٦٥٦هـ).تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ١٩٥٩ م.

- فدك في التاريخ، محمد باقر الصدر، تحقيق: عبد الجبار شرارة، ط١، ١٩٩٤.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٦٦ م.

- كشف الغمة، ابن أبي الفتح الإربلي،الطبعة الثانية، ١٤٠٥ - ١٩٨٥ م، مطبعة دار الأضواء، بيروت – لبنان.

- كشف اليقين، العلامة الحلي(ت٧٢٦هـ)، تحقيق: حسين الدركاهي، الطبعة الأولى -١٤١١هـ، طهران.ـ

- لسان العرب،جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري(ت ٧١١هـ).دار صادر ودار بيروت، لبنان ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٥م.

- مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسين الطبرسي (ت٥٤٨هـ). حقق وعلق عليه: لجنة من العلماء والمثقفين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

- مسند أحمد، أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت.

- معجم البلدان. ياقوت الحموي، (ت٦٢٦هـ).دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م.

- مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب (ت٥٨٨هـ)، مصحح من لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، ١٩٥٦م.

- نهج البلاغة، محمد عبده، مطبعة بابل – بغداد ١٩٨٤م.

- ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان بن إبراهيم القندوزي (ت١٢٩٤هـ)، تحقيق سيد علي جمال أشرف الحسيني، مطبعة الأسوة، قم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.